





يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه .

وحمد نفسه هنا، على أن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بحمده. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ورأى الناس والخلق كلهم، ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم .

تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنتك إن قمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقومي بها [ولم تؤديها] فعليك العقاب .

﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصياناً لرهب، ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل . فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام :

مناقفون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قاتمون بها ظاهراً وباطناً .

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ . فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه .

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه

### تفسير سورة سبأ وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير \* يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور﴾ الحمد: الشناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، فله تعالى الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها، لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي

أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك .

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تنزل آثارها تنزل على عباده كل وقت، بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما .

﴿٣ - ٥﴾ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصف من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين \* ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم \* والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ لما بين تعالى عظمتها بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حتى عظمتها، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: بالله ويرسله، وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا .

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب، فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي، فإنهم في الجنة، يرون من توالي نعم الله، وإدراك خيره، وكثرة بركاته، وسعة عطاياه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة، إلا وقد أعطي، فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم، ولم يحظر بقلوبهم .

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله ومحبته والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم، وألذ عليهم من كل لذة، ولهذا إذا رأوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم، أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس، متواصلاً في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه .

﴿وهو الحكيم﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه . ﴿الخبير﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: من مطر، وبذر، وحيوان ﴿وما يخرج منها﴾ من



من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال والأعراض .

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين الماندين، كما في هذه الآية وغيرها .

﴿٧-٩﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يبئناكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد \* أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد \* أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب \* أي : وقال الذين كفروا \* على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد .

أي : قال بعضهم لبعض : هل ندلكم على رجل يبئناكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد \* يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول : «إنكم مبعوثون» بعدما مزقكم البلي، وتفرقت أوصالكم، وازمحلحت أعضاؤكم؟!

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل أفترى على الله كذباً \* فتجراً عليه وقال ما قال، «أم به جنة»؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فتون، وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه، فلو كان كاذباً جبنوا لم ينبغ لكم

لإيمانهم . ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب . ﴿ورزق كريم﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية .

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي : سعوا فيها كفراً بها، وتعجزوا لمن جاء بها، وتعجزوا لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت . ﴿أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ أي : مؤلم لأبدانهم وقلوبهم .

﴿٦﴾ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد \* لما ذكر تعالى إنكار مَنْ أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار هو الحق، أي : الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين .

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه يهدي إلى صراط العزيز الحميد \* وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة : من جهة علمهم بصدق ما أخبر به، ومن جهة موافقته للأمر الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الأفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه .

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق، والإخلاص، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك . وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر،

فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث، وأنه سياتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال : ﴿عالم الغيب﴾ أي : الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟!

ثم أكد علمه فقال : ﴿لا يغرب﴾ أي : لا يغيب عن علمه ﴿مثقلاً ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ أي : جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها .

﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي : قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم<sup>(١)</sup> ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط .

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال : ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسوله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ تصديقاً

(١) كذا في ب، وفي أ: وعلم.

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴿١٠﴾ .

ولما ذكر ما امتنن به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء .

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾ \* يعملون له ما يشاء من محارب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور \* فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿ لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطف المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين . ﴿غدوها شهر﴾ أي : أول النهار إلى الزوال ﴿ورواحها شهر﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أي : سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها .

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره، ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾ وأعمالهم<sup>(١١)</sup>، كل ما شاء سليمان عملوه، ﴿من محارب﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة، ﴿وثمانيل﴾ أي : صور الحيوانات والجمادات، من إتقان صنعتهم،

لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير ناعفة .

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد \* أن عمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾ أي : ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والتَّعم الدينية والدنيوية، ومن نعمة عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تؤوب معه، وتُرَّجع التسيح بحمد ربه مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تنجاوب بتسيح ربه وتعجده وتكبيره وتحميده، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى .

ومنها : أن ذلك - كما قال كثير من العلماء أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجَّع التسيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل من سمعه، من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربه .

ومنها : أنه لعله ليحصل له أجر تسيحها، لأنه سبب ذلك، وتبعله .

ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدرود السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعه، بأن يقدره في السرد، أي : يقدره حلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض . قال تعالى : ﴿وعلمناه صنعة لبوس

يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصفوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ .

ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، وليتم دعوته، ولكن «ما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى : ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي : في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي : شقاء وضلال، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزأهم به، وجزمهم بأن ما جاؤوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى . ثم نههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعده، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمتها ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الخامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذلك خير غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به .

قال الله : ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي : من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة . ﴿إن في ذلك﴾ أي : خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿آية لكل عبد منيب﴾ . فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم،

(١١) كذا في ب، وفي أ: وأعماله .

ولهذا قال: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ .  
ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها: أقرى صنعاء قاله غير واحد من السلف، وقيل إنها] الشام - هياً لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والزيادة.

ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾ أي: (سيراً) مقدراً يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿ليالي وأياماً آمنين﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، ويطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطفئهم، فأبأدها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سددهم، وأتلف جناتهم، وحزب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق العجيبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقفاً ﴿فخط وأثل وشيء من سدر قليل﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذلك جزيتناهم بما كفروا وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟

فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خط وأثل وشيء من سدر قليل \* ذلك جزيتناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور \* وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سبوا فيها ليالي وأياماً آمنين \* فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور \* ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين \* وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ \* سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها «مأرب»، ومن نعم الله وطفه بالناس عموماً، وبالعرب خصوصاً، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب ويشاهد آثاره ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾ والآية هنا: ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سداً محكماً، يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة، منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أوقاتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وحماها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم،

وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان، ﴿وجفان كالجواب﴾ أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره، ﴿و﴾ يعملون له قدوراً راسيات لا تزول عن أماكنها، من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال: ﴿اعملوا آل داود﴾ وهم داود وأولاده وأهله، لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم. ﴿شكراً﴾ لله على ما أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النقم.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرافها في طاعة الله تعالى، وصورها عن صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حياً، وهابوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى باد وسقط، فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه.

﴿١٥٥ - ٢١﴾ ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور \* فأعرضوا فأرسلنا



من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وما له﴾ أي: الله تعالى الواحد القهار ﴿منهم﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿من ظهير﴾ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير.

فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ فهذه أنواع التعلاقات، التي يتعلق بها المشركون بأنذادهم وأوثانهم، من البشر والشجر وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها تبييناً حاسماً لمواد الشرك، قاطعاً لأصوله، لأن الشرك إنما يدعو ويعد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء، هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان ممن يدعوه [غير الله]، لا مالكاً للنفع والضر، ولا شريكاً للمالك، ولا عوناً وظهيراً للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء وهذه العبادة، ضلالاً في العقل، باطلة في الشرع.

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فيئن الله بطلانه وعدمه، وبين في آيات أخر ضرره على عابديه<sup>(١)</sup>، وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وما أهم النار ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

وتعزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسماراً للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ» فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبارة فيهم إلا من قال الله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله ولا يتسخطها بل يصبر عليها. شكور لنعمة الله تعالى يُقرُّ بها ويعترف، ويشني على من أولاهها، ويصرفها في طاعته. فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم بنعمة الله، وأن من فعل مثلهم فُعل به كما فعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة، دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدق عليهم إبليس ظنه، حيث قال لربه: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ إلا عبادك منهم المخلصين. وهذا ظن من إبليس، لا يقين، لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأت خبير من الله أنه سيغويهم أجمعين، إلا من استثنى، فهؤلاء وأمثالهم، ممن صدق عليه إبليس ظنه، ودعاهم وأغواهم، ﴿فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ ممن لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.

ثم ابتداء فقال: ﴿ولقد صدق عليهم﴾ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

ثم قال تعالى: ﴿وما كان له﴾ أي: لإبليس ﴿عليهم من سلطان﴾ أي: تسلط وقهر، وقسر على ما يريد منهن، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت

تسليطه وتسويله لبني آدم.

﴿لنعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها في شك﴾ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحاً ثبت عند الامتحان والاختبار واللقاء الشبه الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده، فאלله تعالى جعله امتحاناً، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب.

﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهما إياها كاملة موفرة.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزماً لهم بعجزها، ومبيناً لهم بطلان عبادتها: ﴿ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي: زعمتموهم شركاء الله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك فـ ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وما لهم﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فيهما﴾ أي: في السماوات والأرض، ﴿من شرك﴾ أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعواناً للمالك ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعاً، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج

(١) في ب: عابديها.



الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجياً لرد دعوته .

فكما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا ظلم منهم . فأبي: ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعد لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم . فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخير يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!!

﴿قل﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه - : ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته .

﴿٣١-٣٣﴾ ﴿وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له

لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم﴾ الآية ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ .

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين أحققتهم بزعمكم الباطل بالله ﴿شركاء﴾ .

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد . ﴿بل هو الله﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿العزیز﴾ الذي قهر كل شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مذبذب . ﴿الحكيم﴾ الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى<sup>(١)</sup> بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة؟!!

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ، إلا يبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعدا، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم . ومن عدم علمهم، جعلهم عدم

ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجاب لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله، فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده، تبين<sup>(٢)</sup> لك أي: الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتاج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال .

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تسألون عما أجرمتا، ولا تسأل عما تعملون﴾ أي: كل منا ومنكم له عمله أنتم ﴿لا تسألون﴾ عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويتجنب الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصمين، أعدل العادلين .

ولهذا قال: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للشواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين .

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أروني الذين أحققتهم به شركاء﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك .

﴿ويعبدون من دون الله ما

(١) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط .

(٢) كذا في ب، وفي أ: يكفى، ولعل الصواب ما أثبتته .

فإن بُعِثْنَا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعت جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب، ف﴿أولئك في العذاب محضرون﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿يسبط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يخلفه﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وهو خير الرازقين﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: العابدين لغير الله

[وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار، يظهرون ذلك الندم جهراً.

﴿ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ الآيات.

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ يغنون كما يغفل المسجون الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ الآيات.

﴿هل يجزون﴾ في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقال ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿٣٤ - ٣٩﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون﴾ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾

يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسول، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبظرتهم نعمتهم وفخروا بها.

﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي: أولاً، لسا بمبعوثين،

أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنتك لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهو لا جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، ف﴿يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ وهم القادة: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ ولكنكم حُلُتُم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر [إن]، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم. ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرتنا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبرتموه من المكر، في الليل والنهار، إذ تحسّون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا، حتى أغويتنونا وفتنتونا.

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبيري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿أسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق،



ما جنتهم به، فليس عندهم علم، ولا  
أثارة من علم.

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين  
[قبلهم] فقال: **«وكذب الذين من  
قبلهم وما بلغوا»** أي: ما بلغ هؤلاء  
المخاطبون **«معشار ما أتيناهم»**  
**«فكذبوا»** أي: الأمم الذين من قبلهم  
**«رسل فكيف كان تكبير»** أي:  
إنكاري عليهم، وعقوبي إياهم. قد  
أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن  
منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه  
بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة،  
وبالخشف بالأرض، وبإرسال  
الحاصب من السماء، فاحذروا يا  
هؤلاء المكذبون، أن تدوموا على  
التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من  
قبلكم، ويصيكم ما أصابهم.

**«٤٦ - ٥٠»** **«قل إنما أعظكم  
بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم  
تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو  
إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد \***  
قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن  
أجري إلا على الله وهو على كل شيء  
شاهد \* قل إن ربي يقذف بالحق علام  
الغيوب \* قل جاء الحق وما يبدئ  
الباطل وما يعيد \* قل إن ضللت فإنا  
أضل على نفسي وإن اهديت فيما  
يوحى إلي ربي إنه سميع قريب» أي:

والمعبودين من دونه، من الملائكة.  
**«ثم يقول»** الله **«للملائكة»** على وجه  
التوبيخ لمن عبدتهم: **«أهؤلاء إياكم  
كانوا يعبدون»** فتبرأوا من عبادتهم.  
و **«قالوا سبحانك»** أي: تنزيهاً  
لك وتقديساً، أن يكون لك شريك أو  
ند **«أنت ولينا من دونهم»** فنحن  
مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها،  
فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف  
نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء  
وشركاء!!!

ولكن هؤلاء المشركون **«كانوا  
يعبدون الجن»** أي: الشياطين،  
يامرؤن<sup>(١)</sup> بعبادتنا أو عبادة غيرنا،  
فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي  
عبادتهم، لأن العبادة الطاعة، كما قال  
تعالى مخاطباً لكل من اتخذ معه آلهة **«لم  
أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا  
الشیطان إنه لكم عدو مبين \* وأن  
عبدوني هذا صراط مستقيم»** أي:  
مصدقون للجن، متقادون لهم، لأن  
الإيمان هو التصديق الموجب للالتقاد.

فلما تبرأوا منهم، قال تعالى  
[مخاطباً] لهم: **«فاليوم لا يملك  
بعضكم لبعض نقماً ولا ضراً»** تقطعت  
بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من  
بعض. **«ونقول للذين ظلموا»** بالكفر  
والمعاصي - بعدما ندخلهم النار -  
**«ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها  
تكذبون»** فالיום عابتموها  
ودخلتموها، جزاء لتكذبيكم، وعقوبة  
لما أحدثه ذلك التكذيب، من عدم  
الهرب من أسبابها.

**«٤٣ - ٤٥»** **«وإذا تتلى عليهم  
آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد  
أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا  
ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين  
كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر  
مبين \* وما أتيناهم من كتب يدرسونها  
وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير \*  
وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا  
معشار ما أتيناهم فكذبوا رسل فكيف**

ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها  
أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً أن  
تكون حجة، ذكر أنهم وإن أراد أحد أن  
يحتج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا  
لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال:  
**«وما أتيناهم من كتب يدرسونها»**  
حتى تكون عمدة لهم **«وما أرسلنا  
إليهم قبلك من نذير»** حتى يكون  
عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولم يردوا.

(١) في ب: يامرؤهم.

وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان **﴿علم الغيوب﴾** الذي يعلم ما تطوي

عليه القلوب من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، وبينها لهم، ولهذا قال: **﴿قل جاء الحق﴾** أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه. **﴿وما يبديء الباطل وما يعيد﴾** أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبديء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميمهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره.

**﴿وإن اهتديت﴾** فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي، وإنما هدايتي بما **﴿يوحى إلى ربي﴾** فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري. إن ربي **﴿سميع﴾** للأقوال والأصوات كلها **﴿قريب﴾** ممن دعاه وسأله وعبه.

**﴿٥١ - ٥٤﴾** **﴿ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب \* وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد \* وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيث من مكان بعيد \* وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب﴾** يقول تعالى: **﴿ولو ترى﴾** أيها الرسول، **﴿ومن قام مقامك﴾** حال هؤلاء المكذبين، **﴿إذ فرعوا﴾** حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل، وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضعاً، وحالة منكورة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب.

الخلق، أبدأ، وسكينة، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون [لا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي عملاً القلوب أمناً وإيماناً، وتركي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحت على محاسن الشيم، وترهب<sup>(٢)</sup> عن مساوىء الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رفته العيون، هية وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم!!

فكل من تدبر أحواله، ومقصده استعمال هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبيه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وتم مانع للنفوس آخر من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجره على دعوته. فبيئ الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: **﴿قل ما سألتكم من أجر﴾** أي: على اتباعكم للحق **﴿فهو لكم﴾** أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم، **﴿إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾** أي: محيط علمه بما أدعو إليه، ولو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبطال الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن **﴿يقذف بالحق﴾** على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنه بين من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبيرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم



**﴿قل﴾** يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: **﴿إنما أعظكم بواحدة﴾** أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: **﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾** أي: تهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفرادى، استعملتم فكركم وأجلمتموه، وتديرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئته<sup>(١)</sup> ليست كهيئات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل

(١) في ب: هيئته.

(٢) في ب: وترجز.